

شهادة الدكتور أنطوان ضومط

المؤرخ والصدیق

رحم الله الشاهد على العصر (الدكتور نقولا زيادة) الذي كان يجمعنا نحن المثقفين دورياً في منزله. هناك تعرفت على عبد الرؤوف سنو. وكانت الزيارات كلما تكررت بالمقدار، بل وأزيد، تتوثق صداقتنا إن من خلال المواضيع التي كنا نناقش أو الاحاديث العفوية التي كنا نتبادلها. انما معرفتي العلمية به ثبرتها من خلال لجنة البرامج في الجامعة اللبنانية. فكنا نحن الاثنان من أعضائها، إلى جانب زملاء أعرءاء، فكان رائد عبد الرؤوف فيها الخضوع إلى سلطان العلم، من دون تحيز طائفي أو مذهبي أو اعتماد المواقف المسبقة. فاتضحت موضوعيته بجلاء ومن دون مواربة.

رحم الله مجدداً أستاذي الكبير الدكتور نقولا زيادة الذي حضر لنا تلك الرحلة العلمية إلى حلب التي لن ينساها أي من الذين شاركوا فيها، حيث شاركنا في مؤتمر علمي دعت إليه جمعية عاديات حلب وجامعة حلب. فاستأجرنا حافلة كبيرة أقلتنا نحن الاثني عشر شخصاً واستضافنا منظمو المؤتمر ثلاثة أيام جعلتنا نتعرف بعضنا إلى البعض الآخر عن قرب، وإلى ثبر مستوى العلمي لكل منا من خلال البحث العلمي الذي قدمه والمناقشات خلال المؤتمر. فاسترعى انتباهي عدد من الأبحاث، كان من بينها مداخلة عبد الرؤوف سنو التي دلت على عمق في البحث وتبحر متناهي في المصادر وصياغة بارعة تمكن فيها من ربط الحقائق المفردة بسياق محوري متكامل تدرجت فيه الأفكار وأنبنت بسلاسة وعمق قل نظيرهما.

وفي الإطار العلمي نفسه، كانت تربط سنو علاقة صداقة متينة بزملاء له، وذات مرة طُلب إليه أن يكون قارئاً أول لإحدى أطروحات الدكتوراه التي رفضها جملة وتفصيلاً منهجاً ومضموناً، وضمن تقريره المسهب أسباب الرفض، من دون أن تؤثر في حكمه صداقته للأستاذ المشرف، ومن دون أن يتمكن المشرف من التأثير فيه، على الرغم إلحاحه المتكرر لإعادة النظر بتقريره العلمي، فاستمر ثابتاً على موقفه.

أيها الأصدقاء، إنني أقدر بالغ التقدير، مقرونا بالاحترام العلمي العميق للصدیق سنو الذي لم يكن يخش أبداً أو يتوان سؤال أهل الاختصاص ممن يقدر علمهم أكان في مجاله أو في الاختصاصات الأخرى للتأكد من معلومة أو موضوع محدد لم تكن معلوماته به عميقة أو موثوقة، وإنني أقدر له ثقته بي، أنا المختص بالتاريخ العربي والإسلامي في العصور الوسطى، لأنه كان يتوجه إليّ كلما احتاج إلى البت أو الازدياد في المعرفة في مواضيع العصور الوسطى التي كان يحتاج إليها في أبحاثه ومؤلفاته. انه تواضع العالم الذي ننحني أمامه إجلالاً.

وفي الختام، إنني اتساءل فيما لو حذفنا اسم المؤرخ عن مؤلفه " تاريخ لبنان " هل كان يمكن لأحد أن يدرك أن مؤرخه مسلم سني؟! بالتأكيد لا، لا انتقاصاً من قدر أهل السنة في لبنان، بل لأن كثيراً من المؤرخين في لبنان، من كل الطوائف، يتخذون مواقف مسبقة من الأحداث. وعندما نقرأ جميعاً هذا المؤلف الضخم، من حيث الحجم، والرائع من حيث المضمون، والناضب بالحياة من حيث المجتمع، والمتعالي عن الهنات، من حيث المنهج. لقلنا أن سنو مؤرخ لبناني موضوعي بامتياز.

